أسباب سقوط الدولة العثمانية

الدكتور تركماني

الفهرس

أولاً- الأسباب غير المباشرة :

١- تبنّي الدولة العثمانية الشريعة الإسلامية في نظمها وقوانينها ، في كل شاردة و واردة .. وقد كان لرجال الدين (شيخ الإسلام والمفتين) أهمية كبرى في توجيه الدولة بالنصائح والأوامر الشرعية

،نذكر مثالاً على ذلك أن شيوخ الدولة العثمانية كانوا قد أجمعوا على تشويه سمعة الوهابيين (أصحاب الدعوة السلفية في الحجاز والذين تبناهم آل سعود) ، ونعتوهم بالكفر والمروق من الدين ، وأفتوا بوجوب قتالهم ومحق فتنتهم ،فما كان للسلطان العثماني إلا أن أرسل أوامره إلى واليه على مصر "محمد علي باشا" يأمره بسحق هذه الحركة الوهابية ، وفعلاً أرسل هذا ابنه" إبراهيم باشا" القائدالتركي الموهوب على رأس جيش تركي من مصر ، فدمَّر دولتهم ، وقتلوا الأمير السعودي الزعيم المدني (الزمني) لهذه الحركة في مدينة الدرعية بنجد ؛فنامت بذلك الدعوة الوهابية حتى نهاية القرن التاسع عشر .ومن الأمثلة أيضاً :قصة دخول المطبعة إلى البلاد الإسلامية التي عارضها علماء الدين - أول الأمر- معارضةً كادتْ تُحدث فتنة لولا تدخُّل السلطان بنفسه وإقراره لإدخالها ..!!

٢- إن الصبغة الإسلامية الشديدة لدولة العثمانيين كانت حافزاً رئيسياًللدول الأوربية المسيحية كي تتضافر في عدائها لها ،وفي تنسيق الضربات عليها ،

فكانت الدولة العثمانية مثلاً كلما تصادمت مع دولة أوربية (كبلغاريا أو روسيا) وقفت الدول الأوربية تراقب ، فإذا لاح لها أن العثمانيين قد قاربوا النصر وكادوا يستثمرونه تدخَّلت الدول الأوربية مجتمعة لتحول دون إحراز الهدف .. وتفرض - بواسطة إرادة دولية موحَّدة – سلامًا ظالمًا للعثمانيين رغم أنهم في موقع المنتصر !!.

٣-كانت الإمبراطورية العثمانيةتضم إليها بلاداً واسعةً وتخضع لها شعوبٌ مختلفةُ القومية والدين؛ وكانت سياسةالدولة فيهم أ لاّ تتدخَّل في شؤون هذه الشعوب مادامت لا تثير شغباً و لا فتنة ، فهي لم تحاول قط – وهذه سياسة إسلامية أصيلة – أن ترغم نصرانياً أو يهودياً أو غيرهما أن يترك دينه وأن يصبح مسلماً .. بل كانت تعامل هؤلاء الرعايا معاملةً حسنة جداً ، وكانوا يرتقون في مناصبها إذا امتلكوا المؤهلات المناسبة لها.

وحتى من النواحي العرقية والجنسية فالدولة العثمانية لم تسعَ إلى فرض لغتها أو ثقافتها على الشعوب الأخرى .. بل على العكس من ذلك فقد كانت تحافظ على ثقافات شعوبها ولا تحاول بها مساساً ومن الأمثلة المعروفة عن ذلك :

معاملتها مع الشراكسة -الذين هجّرتهم الحرب الروسية والظلم الروسي لهم - فقد قدّمت الدولة العثمانية لهم كلّ المساعدة ، باعتبارهم رعايا مسلمين هُجّروا في سبيل دينهم !! فاستقبلتهم السلطنة على شكل قبائل وكتل بشرية ، وأسكنتهم – محافظةً على تشكيلاتهم العشائرية -على أراضيها الشاسعة بل ومنحتهم(أقطعتهم) أفضل الأراضي الزراعية " الميرية " ، على الأنهار أو في مواضع الينابيع ،التي تضمن لهم الاستقرار والبقاء ، واليوم - في سورية مثلاً- يقول لك شركسي اليوم –حفيد ذلك الشركسي المشرَّد المهجَّر المطرود- إني ورثت عن والدي كذا وكذا من مئات الدونمات الزراعية !! دون أن يذكر فضل العثمانيين عليه و على ذويه !![1]

علاقتها مع الصرب : هذا الشعب السلافي القاسي المشهور بقسوته في التاريخ ، صحيح أن كثيراً من أبنائهم أسلموا وأصبحوا قادةً ، وصدوراً عظاماً (رؤساء وزارات) ، ولكن أغلبية الشعب بقي على نصرانيته (أورثوذوكس) ، يتحيّن الفرص التي تنشغل فيها الدولة العثمانية في حرب أو أزمة ليقوم بثورات عنيفة لطرد العثمانيين ..!

وكذلك فعل الأرمن هذا الشعب الذي نال من الحظوة في عهودالدولة العثمانية ما نال ، وكانوا على الدوام من أثرى شعوب هذه الدولة وأعلاهم مكانةً ، وكان منهم كثير من الوزراء والمستشارين في هذه الدولة ..[2]

ومع ذلك فإن هؤلاء الأرمن طالما طعنوا السلطنة في ظهرها مراتٍ ومرات .. وكان باستطاعة الدولة العثمانية أن تفعل – ما فعلته روسيا برعاياها اليهود أو برعاياها التتار

---

[1] (راجع كتاب تاريخ حمص تأليف نعيم الزهراوي – الجزء الثاني و الثالث ففيه صور عن وثائق عثمانية في أرشيف المحاكم الشرعية بحمص تتعلق بمنح الدولة العثمانية للمهاجرين الشركس و الداغستان أراضٍ ميرية و معونات شتى ..)

[2] (راجع في هذا الشأن كتاب "مذكرات السلطان عبد الحميد")

الأتراك إذ قامت بتذويبهم ومحو هويتهم وبتشريدهم من بلادهـــم وتشـــتيتهم في أراض متفرقة من سيبيريا الواسعة القاسية المناخ والظروف، حتى ليقول (بيرتولد شبولر) في كتابه (العالم الإسلامي في العصرالمغولي)عن مأساة التـــتار في روسيا وعن ما آلت إليه حالهم في ظل هذه السياسة القاسية :

" وهكذاأن أحفاد الأتراك المغول الذين حكموا أوربا الشرقية في ماضـــي الزمـــا ن يقتربون من أزمة تهدّد وجودهم كأمّة ، و لا ندري ما ستكون النـــتيجة ؟!.."

فهؤلاء الأرمن .. لو أن الدولة العثمانية بادرت إلى تشتيت شملهم في الـــبلاد الإســـلامية الشاسعة التي كانت كلها تحت سلطانها .. لكنْتلم تسمع بوجودهم ، ولما كانت لهـــم قضية يتحدثون بها اليوم .. لأن حلّ بعض المشكلات القومية - وخاصة الكتل القوميـــة الصغيرة كالأرمن والصرب و أمثالهما - كان بسيطاً في العهود التاريخية الســـابقة لعصـــرنا اليوم .

.ففي قديم الزما ن قام العباسيون بطرد شعب الزطّ بعد أن شغبوا في جنـــوب العـــراق ؛ فأرسل الخليفة حملةً بقيادة عُجَيْف بن عَنْبَسة فقضى على فـــتنـــتهم، ثم قاموا بترحيلـــهم جملةً إلى بلاد الروم (الأناضول) وألقوا بهم وراء الحدود كما تُلقى القمامة في المزبلة !! وصحيح أن الموقف غير إنساني .. ولكنَّ الدولة العباسية ارتاحت منهم إلى الأبد !

وقبل ذلك قام الخليفة عمر بن الخطاب بطرد اليهودوالنصارى من جزيرة العرب ، وقال قولته الشهيرة: (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان)؛ وفرض على جميع القبائـــل العربيـــة الدخول في الإسلام فرضاً .. و لم يقبل منهم البقاء على النصرانية ..كما حدث مع قبيلـــة تغلب فقد منع نصارى تغلب من تعميد أبنائهم، لأنه لم يقبل من العرب غير الإسلام !! (١)

و قبل ذلك أجلى الرسول ـصلىالله عليه وسلم ـ اليهود من بني قينقاع وبني النضـــير عن المدينة ، بسبب الفتن التي كانوا يحاولون إيقادها في المجتمع الإسلامي الأول .

[1] (راجع :كـــ العرب و الإسلام في الحوض الشرقي.. للدكتور عمر فروخ ص٦٩و١٤٢)

وجود قضية الجواري وتعدّد الزوجات ..كان يثمر الكثير من الأولاد، وبالتالي الكثير من الورثة الطامحين للحكم .. وخاصةً أنْكانوا من أمّ هات مختلفة .. وكثيراً ما كانت هــذه الظاهرة مرأسباب الفتن والمشاكل الداخلية في الأسرة الحاكمة نفسها لا عند العثمــانيين فحسب بل في جميع الدول الإسلامية التي عرفها التاريخ كالعباسيين وغيرهم .

٥ -انتشالرشوة والفساد الإداري وخاصة في العهد الأخير من السلطنة ،وخصوصــاً في البلاد العربية، التي كان النفوذ العثماني فيها ضعيفاً نسبياً وبعيداً عن العاصمة ، وبســبب أن غالبية سكانها عرب .وهؤلاء كانوا في وادٍ ، والدولة في وادٍ آخر.. فالعربي كان قد تعوّدمنذ العهود الإسلامية الأولى (بعد القرن الهجري الأول)أنه غير معــني بالدولــة ولا بشؤونها و خاصة السياسية منها ..
فهو لم يشارك مشاركةً ذات شأن في الدفاع ضد الصليــبيين ولا المغول و لا غيرهم من الغزاة ، بل لقد كان العربي يتذمَّر حتى من دفع المال(١) لتجهيز الجيوش الإســلامية الــتي صدت الغزاة وكافحتهم ..
السماح للامتــيازات الأجنبــية في بعض أرضي الدولة العثمانية ، وهذا كــان يجــاوره العمل التبشيري المسيحي الذي كان يغذِّي النعرات الطائفية في لبنان ، ويحرِّض - بشكل مباشر وغير مباشر - على الانتفاضة ضد حكم العثمانيين أو علــى الأقــل زرع الفــتن والمشاكل فيها . ثم كلما حدثت فتنة بين طائفتين (كالتي حدثت بين النصارى الموارنــة والدروز في لبنان) كانت تقوم قيامة الدول الأوربية بحجة حمايــة النصــارى في بــلاد العثمانيين !!

كانت الإرساليات التبشيرية المسيحية -وخاصة في لبنان وسورية - تحاول جاهدةً بعــث الوعي القومي العربي عند العرب ، في القرن ١٩م و ما بعده، لا محبةً بالعرب ولا بتراثهم

[1] في هذا الشأن راجــع : كــ" طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين السبكي ج٥ ص ٨٣-
و كــ "مفرّج الكروب " لابن واصل ج٢ ص ٣٩٢-
و كــ قيام دولة المماليك الأولى للدكتور أحمد العبادي.)

بل لفصم عرى الأخوّة الإسلامية التي كانت تجمع الشعبين العربي والتركي في الدولة العثمانية الإسلامية التي كانت تقدّس العرب وتاريخهم .. وبنظرة بسيطة لتاريخ النهضة القومية العربية تجد أنَّ أوَّلَ أعلامها كانوا نصارى من اللبنانيين والسوريين !! (آل البستاني و آل اليازجي و نجيب عازوري و غيرهم)

دخول العناصر العربية المحلية في البلاد العربية في صفوف الإنكشارية وجنود الولايات العربية في أواخر عهد العثمانيين على شكل جنود مرتزقة لا يحملون ولاءً إلا لمصالحهم وكان كثير من هؤلاء من الزعّار (الزعران) فأفسدوا تركيبة الجند الذي كان يحفظ النظام في الولايات العربية ؛وسُمِّيَ هؤلاء (باليَرْلِيَّة) .

وصول الموجات العارمة للنزعات العرقية والعنصرية و الدعوات القومية التي كانت قد اجتاحت أوربا؛ ثم انتقلت عدواها بواسطة الدراسات العلمية الإثنولوجية (علم الأعراق) والنظريات الأكاديمية حول أعراق البشر وتصنيفهم ودراسة خصائصهم العرقية .

انتقلت هذه العدوى إلى المفكّرين العرب والأتراك .. فتنبّه كل فريق إلى خصائصه القومية .. فأجّج ذلك شعوراً بالعداء بين الطرفين .. وقاد العرب في النهاية إلى أن يتعاونوا مع المستعمرين (بريطانيا و فرنسا) ضد الدولة العثمانية المسلمة في الحرب العالمية الأولى ! لماذا ؟!

لأن بريطانيا و فرنسا قدمت لهم وعوداً برّاقة كاذبة بأنهم إذا تحالفوا معهم إبان هذه الحرب العظمى و ساعدوهم في تحطيم الإمبراطورية العثمانية فسوف يمنحون العرب جزاء ذلك حق بناء دولة عربية واحدة تضمُّ بلاد الشام و العراق و الجزيرة العربية!!

و حقاً .. كانت النزعة القومية عند الأتراك حديثة العهد ، فقد كانوا عبر تاريخهم يحبون العرب لأنهم قوم النبي ،و يقدسون لغتهم أيضاً لأنها لغة القرآن ،وهي في نظرهم أقدس لغات العالم .. ويرون كثيراً من بلاد العرب أرضاً مقدسة لأن فيها قبور الأنبياء و الصحابة .. حتى إنهم كانوا يسمون بلاد الشام " شام شريف" !.

لذلك فأنت لا ترى في تاريخ الأتراك ما يوحي بأنهم حاولوا طمس اللغة العربية أو الهوية العربية، بل على العكس من ذلك فإن أعلام العلماء في علوم اللغة العربية (بنحوها وصرفها) وآدابها هم من غير العرب (أتراك وفرس): كخلف الأحمر وأبي عبيدة وسيبويه والكسائي والسيرافي والزمخشري والطبري والجاحظ وابن قتيبة وأبي حيان التوحيدي . ([1])

** وفي علوم القرآن والحديث والفقه فإن جلّ العلماء الأعلام هم من الأتراك والفرس حتى إن أعلام العلماء

الذين تصدَّوا للشعوبية- وكانت حركة فارسية في الغالب -كانوا من غير العرب كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي (كلاهما فارسي الأصل) وابن قتيبة الدينوري والزمخشري (وهما تركيان) .

قلنا إذن .. إن النزعة القومية التي ظهرت عند قسم من الأتراك العثمانيين كانت حديثة النشوء ، متأثّرة بما درسه المثقفون منهم في الجامعات الأوربية عن تاريخ الأتراك القديم ، وعن دورهم التاريخي الكبير في صناعة التاريخ .

أما النزعة القومية العربية فكانت قديمة جداً ، لم يستطع الإسلام بمبادئه السمحة أن يطفئ من حدّتها، ولا أن يزرع انفتاحه العالمي في قلوب العرب إلا في حالات فردية قليلة جداً .

ثانياً- الأسباب المباشرة لسقوط الدولة العثمانية:

كانت الدولة العثمانية قديماً لا تعتمد في جيوشها إلا على العنصر التركي وعلى جيشها الإنكشاري أيضاً (وهو جيش نظامي مفرّغ للعمل القتالي - محدود العدد لم يتجاوز في

[1] راجع الصفحات الأولى من كتاب : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية- د. سهيل زكار -أيضاً الصفحة ١٦ و ما بعدها من كـ تاريخ المشرق العربي المعاصر للدكتور أحمد طربين \ جامعة دمشق

أقصى حالاته بضعة آلاف و كان معظم هؤلاء من عناصر سلا فية صربية مسلمة وألبانية مسلمة أيضاً). (١)

أما رعاياها من العرب والمسيحيون فلم تكن الدولة العثمانية تعتمد عليهم في التجنيد لا إجباراً ولا تطوّعاً !!

ولكن هذه السياسة تعدَّلت بعد ثورة العناصر التركية الشابة المثقَّفة في الجيش التركي (جمعية الاتحاد والترقي) سنة ١٩٠٨م وإسقاط عبد الحميد الثاني .

**وكانت أفكار هؤلاء المصلحين تعتقد أن من حق - بل من واجب - جميع عناصر الدولة العثمانية أن يشاركوا في جيشها المدافع عنها ، باعتبارهم مواطنين .. وكانت هذه فكرةٌ سيدفع العثمانيون ثـمنها غالياً ..

إذ إن هذه العناصر كانت وبالاً على الجيش العثماني الذي كان موحّد الولاء ،فأصبح يضم بين فئاته فرقاً كاملةً من الأعداء الداخليين الذين كانوا:

إما أن يتخاذلوا في اللَّحظة الحرجة من المعارك (٢){ كما فعلت الفرق العربية في أثناء حرب القنال (أو السفربرليك) ضد الإنكليز في مصر ، وكانت السبب الأكبر في خسارة العثمانيين بقيادة أحمد جمال باشا ، مما أثار ثائرة جمال باشا بعدها ضد الزعماء من القوميين العرب الانفصاليين ، الذين كانوا - قبل بدء الحرب العالمية و خلالها - يتصلون سراً بسفراء و قناصل فرنسا و بريطانيا لتنسيق العمل على إسقاط الدولة العثمانية و يقومون بنشاط سري فعال في نشر التذمر في الشارع العربي ضد الدولة العثمانية و تحريضه عبر المناشير السرية و غيرها و تهييج مشاعر العرب القومية ضد الأتراك و وصفوهم بأنهم – من خلال تسترهم - اغتصبوا مُلْك العرب و طمسوا حضارتهم ، و أن العثمانيين سفاحون أحفاد جنكيز و هولاكو و تيمورلنك(٣) .!!}

---

[1] راجع كـ: مجتمع مدينة دمشق ١٧٧٢- ١٨٤٠م للدكتور يوسف جميل نعيسة ص٢٣١ وما بعدها..

[2] راجع كتاب (تاريخ الحرب العظمى المصور – تأليف عمر أبو النصر) من مقالة كتبها الجنرال الألماني لودندورف.

[3] راجع كتاب (إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تطبيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل في عاليه)

أو أن ينسلخوا في اللحظة الحاسمة عن الجيش ، وينضموا إلى أعدائه في جبهة القتال ؛ كما فعل الأرمن في انضمامهم إلى الجيش الروسي (العدو) ضد جيش الدولة ، وكما فعل النصارى في البلقان[1] .. وهكذا وفي أحلك اللحظات والدولة العثمانية تخوض معركة الوجود أو اللاوجود ضد أعتى جيوش العالم في حرب عالمية كبرى .. ..خرجت جميع الفئات المناوئة الحاقدة عليها من كل صوب تطعن العثمانيين في ظهورهم ، من صربٍ وأرمن وألبان وعرب ونصارى في لبنان وسورية ومصر . وحتى الشريف حسين -الذي كانت الدولة قد عيّنته نائباً في البرلمان العثماني -!!

انشغال الدولة العثمانية واستنزاف مواردها في حروب متتالية لا تنقطع أبداً ، وعلى عدة جبهات .. مع عدم الانسجام بين عناصر هذه الإمبراطورية الواسعة .. مع وجود تحجّر وانغلاق تجاه الموجات الثقافية والعلمية الأوربية لأسباب دينية كان يتحمَّل وِزْرَها شيوخ الإسلام والإفتاء النافذين في دولة دينية يخلص فيها سلاطينُها لمشورة الدين وعلماء هذا الدين !! فمثلاً .. عند دخول المطابع الآلية إلى الدولة انكمش كثير من المتدينين وخافوا مما قد تجرّه هذه الحروف المطبوعة من تهديد للتراث الإسلامي ، وأحدثت حتى هذه الآلة -ذات النفع العظيم - ضجة وجدالاً بين علماء الدين حتى تدخَّل السلطان بنفسه فأقرَّها !!

٣- وقوع بعض الكوارث الطبيعية المدمِّرة ، كالزلازل ، وكذلك هجمة الجراد المخيفة التي اجتاحت بلاد الشام في فترة الحرب العالمية الأولى ، التي حصدت كل موارد الزراعة في المنطقة مما زاد من ألم الحصار الاقتصادي الخانق الذي مارسته الدول الأوربية ضد العثمانيين ،وخاصة في بلاد الشام ، مما تسبب بالفقر الشديد والمجاعات ، وكان هذا عاملاً إضافياً زادَ من نقمة الشعوب العربية وبخاصة في بلاد الشام على الإدارة العثمانية في تلك الفترة !!

عدم توفر وسائل الإعلام والدعاية المساندة للسلطنة في حربها ، بل على العكس كان المثقفون العرب بنشاطهم الحزبي والصحافي وكتابة المناشير يعملون بكل نشاط وحماسة -

[1] راجع في هذا الشأن كـ(تاريخ الحرب العظمى) الصادر عن دار"المقتطف" المصرية" ص٤١٤

بمساعدة الإنكليز والفرنسيين وبالتنسيق معهم - في بثّ التحريض بـين شـعبهم ضـد السلطنة والانقلاب عليها !!

كانت ثورة الشريف حسين أشد الطعنات في ظهر السلطنة إذ كانت الدولة العثمانيـة (وهي خلافة إسلامية) قد تظن أيّ شيء سوى أن يقوم شريفُ مكة ،سليلُ الـنبي (ص) ،فيضع يده بيد أعداء المسلمين من المستعمرين ..و متى؟!.في ظرف شديد الحرج للأمَّـة الإسلامية .. وهو معركة الوجود أو الفناء !!

و بذلك تمَّ تأمين غطاءٍ شرعيّ من قواتٍ عربيةٍ مسلمة ،تحت قيادة رجلٍ عربيٍّ هـاشمي ،كي تتقدم القوات الإنكليزية و الفرنسية بصورة الأصدقاء المخلصـين المحـالفين الـذين سيطردون هؤلاء الأتراك -الذين اغتصبوا الخلافة الهـاشمية قديماً- ويعيدونها إلى أهلها من العرب الهاشميين !!

ظهور طبقة واسعة من المفكّرين و المثقّفين من الأتراك أنفسهم (أمثال : الشاعر الأديب وليّ الدين يكن ، المفكر ضيا كوك ألب ، والشاعر نامق كمال، مصطفى كمال...) كانت ترى وجوب الإصلاح الانقلابي الجذري للدولة العثمانية ، أي أنْ تسقط الدولة العثمانية ذات الصبغة الإسلامية ؛ لتـقوم مكانها دولـة عصـريةُ النـظُم ، علمـانية الـمنهج !.